

النظرية البنائية في العلاقات الدولية

الدكتور خالد المصري

قسم العلاقات الدولية

كلية العلوم السياسية

جامعة دمشق

الملخص

شهدت العقود الأخيرة تطوراً كبيراً في مجال دراسة العلاقات الدولية إذ برزت مجموعة من المداخل والنظريات الجديدة أخذت تنافس النظريات التقليدية كالواقعية والليبرالية التي اعتمدت الفلسفة الوضعية كأساس لفرضياتها الابستمولوجية والمنهجية. وقد تعددت الاتجاهات الجديدة وأخذت دورها في ماسمي بالجدل الراهن في العلاقات الدولية. ومن بين النظريات الجديدة النظرية البنائية التي يقدمها أتباعها على أنها جسرٌ يصل النظريات الوضعية بالنظريات النقدية الجديدة أو ما بعد الوضعية. دخلت البنائية العلاقات الدولية مع أواخر الثمانينيات من القرن العشرين، ولكن سرعان ما تطورت وأصبحت ركناً أساسياً من أدبيات علم العلاقات الدولية. وقد جاء هذا البحث لدراسة الافتراضات الأساسية للنظرية البنائية وتقييم إسهامها في الجدل الراهن كجسر بين طرفي الجدل.

مقدمة:

البنائية طريقة لدراسة العلاقات الاجتماعية، يشير إلى هذا أحد أهم روادها¹ وبينما تتقاطع مع بعض النظريات والمداخل الأخرى إلا أنها تكون نظاماً أو مدخلاً مستقلاً يتألف من مجموعة من المفاهيم والافتراضات التي تساعد الباحث على دراسة العلاقات بين مجموعة الفاعلين في نظام أو بناء معين. لكنها لا تكون نظرية بعينها بالمفهوم الوضعي للنظرية، أي إنها لا تقدم تفسيرات عامة لسلوك الأفراد، أو لماذا يختلف مجتمع عن مجتمع آخر. ولا تقدم شرحاً أو تنبؤاً للتغيير في العالم أو النظام الدولي. ما تقدمه البنائية هو أن تجعل من الممكن أن يقوم الباحث بوضع أسس نظرية تتعلق بأشياء أو ظواهر تبدو مختلفة ومنفصلة ولا علاقة بينها، لأن المفاهيم المستخدمة عن هذه الظواهر عادة منفصلة وبعيدة وغير متكاملة. وتعد البنائية حديثة في العلوم الاجتماعية بشكل عام والعلاقات الدولية بشكل خاص. إذ دخلت البنائية العلاقات الدولية مع نهاية الثمانينيات من القرن الماضي وسرعان ما أخذت حيزاً كبيراً في أدبيات هذا العلم لتكون المنافس القوي للنظريات التقليدية (الوضعية) مثل الواقعية والليبرالية. هدف هذا البحث إلى دراسة إسهام البنائية كمدخل لدراسة العلاقات الدولية.

أهمية الدراسة:

مع مضي نحو قرن من الزمن منذ تأسيس قسم خاص لدراسة العلاقات الدولية في جامعة ويلز Aberystwyth في بريطانيا العظمى، إلا أن هذا العلم مازال محط جدل أكاديمي كبير بما يخص مجاله وأدوات البحث والمنهجية المتبعة فيه. فقد شهدت العقود الستة الأخيرة من القرن العشرين سيطرة شبيهة كاملة للفلسفة الوضعية بما تحوي من أسس إبستمولوجية ومنهجية لدراسة الظاهرة السياسية. وقد كانت للنظريات الوضعية كالواقعية بأشكالها العديدة والليبرالية الجديدة والمؤسسية إسهامات كبيرة في دراسة العلاقات الدولية. لكن السنوات التي تلت نهاية الحرب الباردة شهدت بروز العديد من التيارات الجديدة التي انتقدت النظريات الوضعية وقدمت كثيراً من التساؤلات عن الافتراضات الإبستمولوجية والانتولوجية لهذه النظريات، وقد عرفت هذه التيارات بالنقدية أو ما بعد الوضعية. وقد أُلّفَ الجدل بين هذه التيارات النقدية والنظريات الوضعية ماسمى بالجدل الرابع أو الجدل الراهن في العلاقات الدولية. في هذا الإطار جاءت إسهامات النظرية البنائية لتكون جسراً بين الوضعية

1 Nicholas Onuf, Vendulka KubalkOuva, Paul Knowert, International Relations In a Constructed World, London, Sharp, 1998, 58

وما بعد الوضعية. تكمن أهمية هذه الدراسة في كونها تقدم تقييماً لإسهام النظرية البنائية في هذا الجدل.

أهداف الدراسة:

هدفَ هذا البحث إلى دراسة الافتراضات الأساسية للنظرية البنائية وتطورها خلال العقود الثلاثة الماضية، وتقديم دراسة نقدية لإسهاماتها في مجال دراسة العلاقات الدولية، وأخيراً تقييم دورها كجسر بين الوضعية وما بعد الوضعية.

مشكلة البحث:

مع بداية القرن الحادي والعشرين يبدو مشهد دراسة العلاقات الدولية مضطرباً تسوده اتجاهات عديدة تقدم كل منها رؤية أو تصوراً مختلفاً عن العلاقات بين الوحدات الفاعلة في النظام الدولي. ويدور هذه الأيام جدل أكاديمي بين مختلف هذه النظريات أو المداخل التي يمكن إجمالها بطرفي هذا الجدل إذ تؤلف النظريات التقليدية الوضعية الطرف الأول في حين تؤلف التيارات النقدية الطرف الآخر. إن جوهر الجدل هو إبستمولوجي وانطولوجي إذ يعتقد الفريق الأول بحتمية أثر البيئة في سلوك الفاعل، وأن هناك حقيقة خارجية عن نطاق تأثير الفاعل. ويمكن اكتشاف هذه الحقيقة بالملاحظة والتجريب، وتستبعد هذه النظريات دور القيم والثقافة والصفات الخاصة بالفاعل بوصفها عوامل مؤثرة في سلوك الفاعل. في حين يرى فريق آخر أن الظاهرة السياسية لا تتكرر، وهذا ينقض الأساس الذي تقوم عليه السلوكية بوجود نمذجة وتكرار للظاهرة السياسية والاجتماعية مما يجعلها قابلة للدراسة عن طريق الملاحظة والتجريب. كما ترفض التيارات النقدية الافتراض الذي تنطلق منه النظريات الوضعية بوجود حقيقة مستقلة عن الإرادة البشرية يمكن اكتشافها بالطرائق العلمية. أيضاً يشير أتباع التيارات النقدية إلى أنه لا يمكن فصل الذات عن الموضوع، بمعنى أن الفرد لا يمكن أن يكون موضوعياً. ومع هذه التيارات الوضعية وما بعد الوضعية جاءت النظرية البنائية لتقدم نفسها بأنها الجسر الذي يربط بين الطرفين كونها تنطلق من الفرضيات الأساسية بأن الدولة فاعل أساسي وتسعى لتحقيق مصالحها الوطنية. وفي الوقت نفسه تسعى البنائية إلى تسليط الضوء على دور الهوية والثقافة بتحديد المصلحة الوطنية للفاعل وبذلك يتحدد سلوكه. تكمن مشكلة البحث بتموضع البنائية ودورها في الجدل الراهن في العلاقات الدولية. فبينما يرى بعضهم أنها لا تؤلف أي إضافة إلى النظريات الراهنة، يرى فريق آخر بأن البنائية تشكل ليس فقط الجسر الذي يربط طرفي الجدل الأكاديمي، وإنما تكون

الأساس لمنهجية جديدة قد تحقق لعلم العلاقات الدولية الفرصة في تطوير منهجية علمية قادرة على دفع هذا العلم إلى الأمام. حاول هذا البحث أن يجيب عن تساؤل يطرحه طرفا الجدل، وهو هل تستطيع البنائية معالجة مسألة (الفاعل والبناء) بطريقة علمية ومنهجية توفر لعلم العلاقات الدولية ما يحتاج إليه من هوية مستقلة من أجل تقدم علمي في المستقبل؟ وهل فعلاً تولّف الجسر بين الوضعية وما بعد الوضعية؟

فرضية البحث:

ينطلق هذا البحث من الفرضية الآتية: إن الافتراضات الابستمولوجية والانطولوجية للبنائية تجعل منها جسراً يربط النظريات الوضعية و التيارات النقدية (مابعد الوضعية) وتسهم بإضافة علمية يمكن البناء عليها في دراسة العلاقات الدولية.

منهج البحث:

إن دراسة دور نظرية من النظريات في مجال معين من المعرفة، وتقييمه يستوجب التعمق في فلسفة العلم والاتجاهات الفكرية عن المعرفة والمنهج المتبع للحصول عليها. فبين الفلسفة الوضعية والمنهجية العلمية في العلوم الاجتماعية كما صورها أوغست كونت والاتجاهات الفلسفية الأخرى مثل التيارات التأويلية أو النقدية التي تسمى بعض الأحيان بـ Reflexive.

أتبع المنهجان الأساسيان في الحصول على المعرفة، الأول: هو الاستنباط Deductive؛ وذلك لوجود نظرية مسبقة وفكر علمي يبني عليه يمكن اختباره على أرض الواقع أي الانتقال من النظرية للواقع، ومن ثم إتبع الاستقراء Inductive وهو الانطلاق من الواقع إلى النظرية وفي سبيل ذلك دُرست الأسس الابستمولوجية للنظرية البنائية وقِيم إسهامها في التراكم المعرفي في مجال العلاقات الدولية.

الدراسات السابقة:

مع أن البنائية كمنهجية في العلوم الاجتماعية أصبحت من النظريات الأساسية التي باتت من أهم النظريات في علم الاجتماع، إلا أنها لم تدخل العلاقات الدولية إلا مع نهاية الثمانينيات من القرن العشرين. وقد برزت كتابات عديدة في هذا المجال مثل كتابات الكساندر وندت ونكلاس أونوف وفردريك كروتشويل التي أسهمت -إلى حد كبير- في وضع الأسس لهذه النظرية. إذ يعد كتاب الكساندر وندت "نظرية اجتماعية في السياسة الدولية"، Alexander Wendt, Social Theory of

International Politics من أهم الكتب الذي يرى فيه العديد من الأكاديميين مرجعاً للنظرية البنائية، فقد طرح بشكل واضح الافتراضات الأساسية للبنائية، وعملية تكوين الهوية من خلال العلاقة والتفاعل بين الفاعل والبناء Agent Structure. أمّا باللغة العربية فلا توجد دراسة أو حتى مقالة عدا بعض المقتطفات في بعض كتب العلاقات الدولية البسيطة. من هنا نرى أن هذا البحث يؤلّف إضافة إلى ما كتب باللغة العربية في هذا المجال.

مخطط البحث

مقدمة

المطلب الأول : الافتراضات الأساسية للنظرية البنائية

المطلب الثاني: أهم المفاهيم للنظرية البنائية

المطلب الثالث : البنائية كجسر بين الوضعية و ما بعد الوضعية

خاتمة

المطلب الأول: الافتراضات الأساسية للبنائية

يشير بول فيوتي ومارك كوبي إلى أن هناك أربعة افتراضات تنطلق منها البنائية في العلاقات الدولية²:

1- تتخذ البنائية موقفاً مغايراً لموقف النظريات الوضعية من مفاهيم أساسية في العلاقات الدولية مثل (المصلحة الوطنية، والهوية، والأمن القومي)، إذ يرفض البنائيون قبول هذه المفاهيم كما هي معطاة. كما يهتم البنائيون بالقوى الفاعلة غير الدولة، مثل المنظمات الدولية والمنظمات غير الحكومية. فضلاً عن ذلك يركز أتباع البنائية على العوامل المعرفية والذاتية التي تنتج عن تفاعل هذه الوحات في علاقاتها البيئية.

2- يرى البنائيون بنية النظام الدولي على أنها بنية اجتماعية تتضمن مجموعة من القيم والقواعد والقوانين. هذه البنية تؤثر في الهوية والمصلحة للفاعلين.

3- البنائية كما يستدل من اسمها، تنظر إلى النظام الدولي بأنه عملية دائمة مستمرة من البناء الحاصل من التفاعل بين الفاعلين والبناء نفسه. فبالنسبة إلى البنائيين العالم دوماً هو قضية

2 Paul R. Viotti, International Relations Theory, 5th ed, London, Pearson, 2012, p.278

متجددة ليس شيئاً تم وانتهى وعلينا قبوله كما هو. وهذا - بالطبع - موقف مختلف عن موقف الواقعيين والليبراليين وحتى الراديكاليين بنظرتهم إلى البناء.

4- قدم أتباع النظرية البنائية إسهامات جادة في الحوار والجدل الاستمولوجي والانطولوجي في العلاقات الدولية. إذ يرفض البنائيون الافتراضات الوضعية بوجود قوانين وشبه قوانين تحكم الظاهرة الاجتماعية والسياسية بعيدة عن إرادة الفاعل وقدرته في التأثير في محيطه. كما ترفض البنائية افتراضات الوضعية بإمكانية الموضوعية، أي فصل الذات عن الموضوع.

نقطة الانطلاق للبنائية هي افتراضها الأساسي بأن الإنسان كائن اجتماعي. بمعنى أنه لا يمكن لنا أن نكون أناساً دون علاقاتنا الاجتماعية. أي إن العلاقات الاجتماعية هي التي كونت الناس على ما هم عليه الآن. وبالمقابل، نحن نكون العالم من حولنا بما نفعل بما تمنحه الطبيعة من موارد، وبما نقول لبعضنا بعضاً. وفعلاً القول بعض الأحيان كالفعل. فما نقوله لبعضنا بعضاً يصبح جزءاً مهماً من تركيبية العالم من حولنا.³

بهذا الاتجاه كتب نكولاس انوف كتابه "عالم من صنعنا" Nicholas Onuf, World of our Making الذي يعدّ من البدايات الأولى للبنائية في العلاقات الدولية. فالدول، والمجتمعات والعالم، بالنسبة إلى أنوف ما هي إلا من صنع الناس من خلال تفاعلاتهم البيئية ومع البناء. فجوهر البنائية هو أن الناس "الأفراد" يصنعون المجتمع والمجتمع يصنع الناس. هذا الطريق ذو الاتجاهين أو هذه العملية المتبادلة بين المجتمع والناس هي محور اهتمام البنائية.

يرى أتباع البنائية أنه من أجل دراسة هذه العملية أي التأثير المتبادل بين الفرد والمجتمع لا بدّ من أن نبدأ في الوسط، أي من آلية التأثير بين الجهتين. ولذلك يقدم البنائيون مفهوم القاعدة بمعنى الضابط Rule التي بنظرتهم تربط وتصل بين الفرد والمجتمع.

فالقاعدة بالنسبة إلى أتباع البنائية هي العبارة التي تعلمنا ماذا نفعل What should we do، وهنا كلمة ماذا What تؤلف المعيار أو المقياس أو النموذج الذي يجب أن يفعله الناس في ظروف متشابهة.⁴ أمّا كلمة يجب Should فتخبرنا بضرورة الالتزام بالقاعدة، وإلا سنحمل النتائج وقاعدة أخرى تطبق علينا مخصصة لمثل هذا الوضع من عدم الالتزام بالقاعدة الأولى.

3 Nicholas Onuf, "Constructivism: a User's Manual" in Nicholas Onuf, Vandulka Kabalkuva, International Relations In a Constructed World, London, Sharp, 1999, 38

4 Ibid p. 59

والطرائق جميعها التي يتخذها الناس سواء باتباع القواعد أو بمخالفتها، بالحفاظ عليها أو بتغييرها تسمى الممارسات. ويسمى القائمون بالفعل على هذه الممارسات بأنهم فاعلون Agents، أي وحدات داخل المجتمع، والمجتمع هو البناء Structure. وفي العلاقات الدولية الفاعل هو الدولة والبناء هو النظام الدولي، ويعتقد بعض البنائيين أن المنظمات الدولية وبعض القوى الفاعلة غير الدولة يمكن أن تكون (فاعلًا أيضًا كالدولة) وجزءًا من عملية التفاعل في العلاقات الدولية، ولكن لا يمكن لأي فاعل أن يكون فاعلاً في الأوضاع جميعها وفي الحالات جميعها وإنما في بعض الحالات التي من خلالها يجري التفاعل بين هذا الفاعل والبناء في مسار سلوك هذا الفاعل. مما سبق نستنتج أن البنائية تحاول أن تسلط الضوء على ما أسماه أنتوني غدنز Anthony Giddens بالثنائية Duality أي العلاقة المتبادلة بين الطرفين، فلا سلوك الفاعل Agent يأخذ الأولوية ولا البناء Structure يطفى على الفاعل، وإنما عملية التبادل والتفاعل the Process of Interaction بين الاثنين هي المهمة لفهم المجتمع ودراسته. بذلك يكون غدنز قد وقف موقف الوسط بين التقليد الذي أسسه ماكس فيبر Max Weber والذي يتخذ من فعل الوحدة (Action Theory) أو الفرد نقطة انطلاقه في دراسة المجتمع التي سميت بنظرية الفعل. وفي الطرف الآخر التقليد الذي يعود إلى أعمال إميل دوركايم Emil Durkheim الذي يركز على المجتمع بوصفه نظاماً مستقلاً بذاته يصبح تأثيره كبيراً ومباشراً في الأفراد.

في عام 1984 ظهرت كتابات أنتوني غدنز Anthony Giddens الذي أشار من خلالها إلى ما أسماه النظرية البنائية أو عملية البناء Structuration Theory التي من خلالها يؤثر الفرد في بناء المجتمع والبناء يؤثر في سلوك الفرد والآلية التي تربط الطرفين هي القواعد، والأعراف، والرموز والمؤسسات التي يبنونها الأفراد.⁵ هذا يعني أن البنائيين يرون أن البناء هو بناء اجتماعي ناتج عن ممارسات الفاعلين التي بدورها تتأثر بهذا البناء. ويشير أحد رواد هذه النظرية فريدريك كروتشويل إلى أن القيم والقواعد ليست فقط تؤسس لنا معياراً للتصرف ولكن أيضاً تساعدنا كفاعلين على تحديد مسعانا وأهدافنا من خلال هذه القواعد والقيم وتؤسس معاني لهذه القيم لتصبح أساساً يوجه الفاعلين ويحدد سلوكهم تجاه بعضهم بعضاً. في حين يحاول أماتويل أدلر Immanuel Adler التركيز على دور الهوية والقيم في تحديد المصلحة الوطنية وتشكيلها وبذلك ينطلق أدلر من رؤية أوسع إذ يعرف البنائية بأنها نظرية اجتماعية تبحث في دور المعرفة والفاعل العارف في تحديد الواقع الاجتماعي وتشكيله، والهدف هنا هو فهم دور العلاقة بين مجموعة التفاعلات الفردية من قبل الفاعل والبناء الاجتماعي أو البيئة الاجتماعية. ويتضح مما سبق أن أدلر يشارك أغلب البنائيين في أن العالم من

5 Anthony Giddens, Sociology, 5th, London, Polity, 2011, 64

حولنا ليس شيئاً معطياً بعيداً عن تأثير الفاعلين أو نتاجاً قد تم وله آثاره الحتمية في سلوك الفاعل، بل هو يرى أن هذا العالم عبارة عن عملية مستمرة من البناء الدائم ناتج عن التفاعل بين البناء والفاعل.⁶ فضلاً عن الاتجاه المذكور يضيف جان جرارد رجي John Gerard Ruggie اتجاهين آخرين من البنائية في العلاقات الدولية. الاتجاه الأول يطلق عليه اسم البنائيين أتباع ما بعد الحداثة ويشمل كلاً من ديفيد كامبول، وجيمس ديردريان، وروبرت ولكر وبعض أتباع النظرية النسوية مثل سبايك بيترسون. أما الاتجاه الثاني وهو الأهم في هذا البحث وهو الاتجاه الطبيعي فيمثل الكساندر ويندت وديفيد دسلر، وقد برز هذا التيار خلال السنوات العشر الماضية بوصفه أحد أهم المداخل النظرية في دراسة العلاقات الدولية.

البنائية "الطبيعية" في فكر ألكساندر ويندت:

كانت مقالة ويندت (أناركي - كما تصنع منها أو تفهمها الدول) Alexander Wendt, Anarchy What States make of It من أهم الإسهامات في هذا الاتجاه التي من خلالها أشار ويندت إلى أن الفوضى (غياب السلطة المركزية عن النظام الدولي) أو حالة الاعتماد على الذات في الأمن هي عبارة عن رؤية ناتجة عن عملية تفاعل اجتماعي أنتجتها الممارسات التي قام بها الفاعلون في النظام الدولي والتي أثرت وتأثرت بالوقت نفسه في بنية هذا النظام. بمعنى آخر إن رؤية الدول لطبيعة النظام الدولي والنتائج المترتبة على هذه الطبيعة هي نتاج عمليات وعلاقات اجتماعية بين الوحدات الفاعلة، وهي الدول وتفاعلها مع بنية النظام الدولي.⁷

إن نظرية ألكساندر ويندت بكاملها وضعها في كتابه (نظرية اجتماعية في السياسة الدولية) Social Theory of International Politics. وقبل أن نستعرض هذه النظرية نود أن نشير إلى نقطة مهمة في دراسة العلاقات الدولية، وهي أننا عندما نقرأ عنوان كتاب ويندت المذكور لابد لنا من أن نتذكر كتاب كينث ولتزن (نظرية السياسة الدولية) Kenneth Waltz Theory of International Politics، وهذا يدعونا إلى المقارنة بين النظريتين، ونعتقد أن هذه المقارنة ضرورية لأنها تلخص أهم النقاط التي يركز عليها كل من التيارين الوضعية والبنائية الاجتماعية.⁸

6 Immanuel Adler, Security Communities, New York, Cambridge University Press, 1998, p. 41

7 Alexander Wendt, "Anarchy What States Make of It", *International Organizations*, Vol. 46, No 2 Spring 1992 P. 391-425

8 Alexander Wendt, Social Theory of International Politics, New York Cambridge University Press, 1999

يمثل كتاب ولترز التيار الوضعي في دراسة العلاقات الدولية بما فيه من افتراضات ابستمولوجية ومنهجية مستقاة من العلوم الطبيعية. فقد جاء كتاب ولترز في النصف الثاني من العقد السابع من القرن العشرين في ذروة ما عرف بالجدل الثالث في العلاقات الدولية، وهو جدل بين الواقعية الجديدة والليبرالية الجديدة. ومن الجدير بالذكر أنّ طرفي هذا الجدل هم من التيارات الوضعية التي تعتقد بإمكانية دراسة الظاهرة السياسية دراسة علمية تعتمد على الملاحظة والتجريب، وبإمكانية فصل

الذات عن الموضوع Objective or Value free

بينما كتاب الكساندر وندت جاء للرد على الواقعية الجديدة المتمثلة بكتاب ولترز نظرية السياسة الدولية التي تعدّ مثالاً للدراسات الوضعية، ولذلك وضع وندت عنوان كتابه نظرية اجتماعية في السياسة الدولية، ولم يضع عنوانه نظرية اجتماعية في العلاقات الدولية، أو أي شيء آخر، إشارة منه إلى أن نظريته التي شرحها في كتابه هي مساوية لنظرية ولترز، ولكنها تضيف أشياء عديدة من بينها مسألة الهوية والعلاقة بين الفاعل والبناء، التي أصبحت تعرف في أدبيات العلاقات الدولية

جدل ال"الفاعل - البناء" Agent - Structure Debate.⁹

هنا تجب الإشارة إلى أن الكساندر وندت كان قد أفاد من كتابات أنتوني غدنز في مجال البنائية في علم الاجتماع. ويجب أن لا يغيب عن أذهاننا أن الوضع الذي ساد منذ الثمانينيات وحتى الآن في مجال دراسة العلاقات الدولية يتسم بتعدد الرؤى و المداخل التي أعطت وندت الفرصة ليطلع على أكثر من اتجاه في العلاقات الدولية.

عودة إلى إسهام الكساندر وندت في البنائية، فقد كان واضحاً منذ البداية لوندت أن التحدي الأساسي الذي يواجه الباحث بشكل خاص والإنسان بشكل عام هو أن يجد فهماً صحيحاً للعالم من حولنا الذي نسهم في بنائه ونعدّ جزءاً منه، فنحن نفترض أن هناك عالماً مستقلاً عن إرادتنا كما يعتقد الوضعيون، ولكن هذه الرؤية، يقول وندت: إنّها محددة وتتأثر بتفسيراتنا ورؤانا المتعددة التي جاءت نتيجة التفاعل بيننا كفاعلين وبين العالم من حولنا كبناء وموافقنا الانطولوجية والابستمولوجية عن هذا العالم. نقطتان مهمتان تبرزان في إسهام وندت بحسب رأي بول فيوتي ومارك كوبي، الأولى تتمثل في رؤية وندت بأن البناء أو الإطار Structure الذي ينتج عن العلاقات الإنسانية يحدد تحديداً كبيراً بالأفكار أكثر مما يحدد بالأمر المادية.¹⁰ النقطة الثانية في إسهام الكساندر وندت هي قوله: إنّ

9 Colin Wight, Agent Structure and International Relations: Politics as Ontology, Cambridge University Press, New York, 2006, P.64

10 Paul Viotti, Mark Kuppi, International Relations Theory, 5th ed, London, Pearson, 2011, P. 389

المصلحة والهوية Identity or Interest للفاعل Agent سواء فرد، أو مجموعة أو دولة تبنى أو تتشكل عن طريق هذه الأفكار المشتركة والتفاعلات المتبادلة أكثر مما تتشكل عن طريق الأمور المادية أو الطبيعية. من الواضح أن نظرة "وندت" إلى كينونة العلاقات الدولية على أنها اجتماعية ناتجة عن الأفكار و القيم والممارسات و القواعد التي تحكم العلاقات بين الوحدات Agents والبناء Structure، وهي أهم من البناء المادي أو العوامل المادية. بشكل أوضح، يرى ألكساندر وندت أن الدول أو الأفراد كفاعلين باسم الدول، على مر الأيام يصنعون العلاقات الدولية بشكلها الذي هي عليه.

إن تركيز وندت على الجانب الاجتماعي من البناء لا يعني أنه ينفي أهمية دور الجانب المادي للبناء أو يلغيه في تحديد سلوك الدول، بل على العكس هو يرى أن هذا الجانب مهم ويميز بين ثلاثة أنواع من الرؤى لمفهوم الاتاركي أو غياب السلطة المركزية من النظام الدولي:

1- النظرة "الهوبسية"، نسبة إلى توماس هوبس Hobbsean

2- النظرة الثانية يسميها "اللوكية" نسبة إلى جان لوك Lockean

3- أمّا النظرة الثالثة فهي "الكانتية" نسبة إلى إمانويل كانت Kantian

1- الرؤية الهوبسية Hobbesean View

تتسم هذه الرؤية بأنها تنسجم و تتطابق مع الرؤية الواقعية الجديدة لبنية النظام الدولي التي ترى أن غياب السلطة المركزية من النظام الدولي يجعل الدول تعيش في حالة عدم وضوح وخوف من تزايد قوة أي دولة أخرى؛ ولذلك تسعى كل دولة إلى زيادة قوتها الذاتية التي تقود إلى نظام "الاعتماد على الذات" Self-help، وهذا يقود إلى نوع من سباق التسلح وسلسلة من الإجراءات المتتالية من السياسات التي تقود إلى صراع الكل ضد الكل.

2- الرؤية اللوكية Lockean View

تحتل هذه الرؤية موقع الوسط بين الرؤى الثلاث، إذ تستند إلى الفلسفة السياسية لجان لوك و دورها تعتمد على أفكار هوغو غروشيوس الذي يعدّ الدولة وحدة فاعلة مستقلة في ظل غياب السلطة المركزية من النظام الدولي، وهذه الدول تتنافس و تتصارع من أجل تحقيق مصالحها، ولكن هذا التنافس يكون من خلال مجموعة من القواعد المتفق عليها بين الدول.

3 الرؤية الكانتية Kantian View

تعتمد هذه الرؤية على أفكار الفيلسوف الالماني إمانويل كانت الذي يرى أن النظام الدولي يشكل مجتمعاً أو نظاماً عالمياً فيه قيم مشتركة مقبولة من الوحدات جميعها. والعالم بكامله هو موطن للإنسانية فهو لا يرى أن غياب السلطة المركزية تعني الصراع والعيش بشريعة الغاب.

من الواضح أنه في حال تبني الفاعل أو الدولة للرؤية الأولى، وهي أقرب إلى الواقعية الجديدة تنظر الدول إلى النظام الدولي على أنه فوضوي تحكمه شريعة الغاب، والقوي يفعل ما تمنحه قوته والضعيف يقبل ما تفرضه القوى الأخرى عليه.

وبالمقابل إذا كان الفاعل يتبنى الرؤية الثانية التي تعتمد الفكر الليبرالي لجون لوك، فهذا يعني أن الفاعل يرى أن بنية النظام الدولي تقود إلى التعاون واحترام القانون الدولي والشرعية الدولية، وأن الدول من مصلحتها أن تطبق القانون الدولي وتتعاون لحل التحديات المشتركة. لذلك يرى أصحاب هذه الرؤية أن هناك مجتمعاً دولياً وليس نظاماً دولياً، وهذه الفكرة تُولفُ أحد أهم الافتراضات الأساسية للمدرسة البريطانية "الانكليزية" في العلاقات الدولية The English School of International Relations.

أما النظرة الثالثة التي تنظر إلى العلاقات الدولية بأنها عالمية وترى ضرورة وجود حكومة عالمية كالحكومة المحلية فلا تتفق والنظرة الواقعية بحتمية الصراع بين الدول.

ولكن الكساندر وندت يرفض هذه الرؤية التي ترى أن طبيعة النظام الدولي "الفوضوية" لها وبشكل حتمي أثرها في سلوك الفاعلين، دون التطرق إلى آلية تكوين الرؤية من عملية تفاعل أسهم من خلالها الفاعلون بتكوين هذه الفكرة. بمعنى آخر يقول وندت: إن الاناركيا (غياب السلطة المركزية) تعني ما يراها الفاعلون، وهذه الرؤية ليست ثابتة وبشكل معطى سواء إيجابية أم سلبية، بل هي ناتجة عن العلاقات الاجتماعية وعمليات التفاعل بين الوحدات بعضها بعضاً والوحدات و البناء.

فضلاً عن ذلك اهتم وندت بالعلاقة بين الأفكار والعوامل المادية في العلاقات الاجتماعية والتفاعل الاجتماعي. واهتمامه هذا جاء لأنه كان يسعى لفهم كيف تتفاعل العوامل المادية والأفكار مع بعضها بعضاً في الطبيعة بشكل عام والعلاقات الإنسانية بشكل خاص.

بتساعل وندت عن العلاقة بين (العقل والجسد) ومسألة الوعي الإنساني في هذه العلاقة. وفي هذا المجال يرفض وندت المقولة بأن العقل دوماً مهيمناً عليه من قبل العوامل المادية الخارجية التي تعود

إلى الافتراض بأن نظرة الفرد بسبب هذه الهيمنة المادية إلى أن الحقيقة والواقع من حولنا ليست إلا بيئة أو عالماً مادياً.

الوعي كما يراه وندت هو أساس "الحياة الاجتماعية" وفي تكوين الوعي يشترك المادي والفكري (Ideas) وهو (الوعي) ليس منفصلاً عن الفعل الإنساني، بل على العكس هو جزء من هذا الفعل. في رده على أتباع "نظرية الخيار العقلاني" Rational Choice Theory الذين يستبعدون دور العوامل الشخصية والفكرية وأثرها في سلوك الفاعل (Agent) أو الفرد، ويعتقدون أن العوامل المادية هي السابقة وهي التي تحدد الأفكار لدى الفرد؛ وذلك يعني أن الوعي يأتي في الدرجة الثانية بالنسبة إلى أتباع نظرية الخيار العقلاني. لكن ويندت يرى أن هذه الرؤية - إلى حد ما - غير صحيحة، وهو يرى أن في تكوين الوعي تؤدي الأفكار والعوامل المادية دوراً ثانياً بعملية لا يُلغى أحدهما الآخر.

المطلب الثاني: أهم المفاهيم في النظرية البنائية (بعض المفاهيم الأساسية في العلاقات الدولية كما يراها أتباع النظرية البنائية).

إن لكل نظرية من النظريات أدوات تحليل ومفاهيم تستند إليها في رؤيتها وفهمها لظاهرة معينة فالواقعية على سبيل المثال لديها مفاهيم مثل الأمن القومي، والقوة، والمصلحة وغيرها، في حين تعتمد النظرية الليبرالية على مفاهيم مثل التعاون الدولي، والتكامل، والاعتمادية المتبادلة، وفي رؤيتها للعلاقات الدولية توظف النظرية البنائية بعض المفاهيم المشتركة مع النظريات الأخرى وإن اختلفت رؤيتها في معنى هذه المفاهيم ودورها.

أولاً: مفهوم الدولة والقوة لدى البنائيين:

لأتباع البنائية، السياسة الدولية لا يمكن تحليلها وفهمها بالتركيز فقط على بنية النظام الدولي كما يعتقد الواقعيون الجدد الذين يرون أن بنية النظام الدولي (توزيع القوة في النظام الدولي) بشكل آلي وأتوماتيكي يؤثر في سلوك الدول، بل يرفض البنائيون هذا التعميم في أثر النظام الدولي في سلوك الدول، وبالمقابل يرى البنائيون أن الدول تتصرف بهذا الشكل نتيجة العلاقات الاجتماعية وتفاعلها مع بنية النظام الدولي التي تشكل إطاراً اجتماعياً من القواعد والقيم التي تتصرف الدول من خلالها. من ذلك نستنتج أن البنائيين يصرون على أن السياسة الدولية ليست بالضرورة محكومة بالقوة والمصلحة فقط، فهناك مبادئ وقيم ومفاهيم مثل السيادة وعدم التدخل التي أصبحت جزءاً من الإطار

الاجتماعي لسلوك الدول والتي تُؤلف ضابطاً لهذه الوحدات وإن كانت تخترق -بعض الأحيان- فمخالفة القاعدة لا يعني عدم وجودها¹¹.

فعلى سبيل المثال مفهوم توازن القوى Balance of Power لا يصبح قانوناً كما يعتقد الواقعيون، بل هو مفهوم أو قاعدة تقبله الدول على مر الزمن نتيجة استخدامه المتكرر من قبل الدول والوحدات الأخرى، وتتصرف بناء على هذه القاعدة أو العرف؛ مما يجعله يبدو كالتقانون الملزم في العلاقات الدولية تأخذه الدول على أنه نافذ في كل زمان ومكان.

إن مفهوم القوة كما يراه البنائيون ليس كما يراه الوضعيون أو بشكل خاص أتباع النظرية الواقعية. إذ يعدّ الواقعيون القوة جوهر العلاقات الدولية وخاصة القوة العسكرية التي تعدّ بنظرهم هدفاً ووسيلة في تحقيق المصالح الوطنية. إن هذه النظرة المادية لمفهوم القوة جعلت الواقعيين يركزون على عوامل تسهم في مقدرة الدول مثل (الأرض، والسكان، والاقتصاد، فضلاً عن - طبعاً - عن القوة العسكرية). ومع أنه لا يوجد تعريف موحد لمفهوم القوة حتى بين الواقعيين أنفسهم، إلا أن أكثر التعاريف تداولاً هو تعريف روبرت دوول Robert Dahl الذي يقول: إنَّ القوة هي قدرة الفاعل (أ) على أن يجبر فاعل (ب) على أن يفعل شيئاً أو يمتنع عن فعل شيء ما كان ليفعله (ب) لولا قدرة (أ)¹². أمّا بالنسبة إلى البنائيين فمفهوم القوة هو بناء اجتماعي بحد ذاته يتحدد معناه وأثره من خلال التفاعل بين الوحدات الفاعلة في النظام الدولي والبناء الذي يحتوي هذا التفاعل.

أمّا ما يتعلق بالدولة فهي بالنسبة إلى البنائيين بناء اجتماعي ووحدة سياسية تُؤلفُ الفاعل الأساس ولكن ليس الوحيد في العلاقات الدولية.

ثانياً: المصلحة الوطنية في النظرية البنائية:

مفهوم آخر في العلاقات الدولية يعدّ من أهم المفاهيم ومن أكثرها غموضاً هو مفهوم المصلحة الوطنية. إن مفهوم المصلحة الوطنية يعدّ من المفاهيم المركزية للواقعية إذ ينظر إليه على أنه شيء تملكه الدول ويبني على مر الزمن ويرتكز على بعض الأسس أهمها موقع الدولة الجغرافي، والموارد التي تحتويها الدولة، وعدد السكان، والأهداف الاستراتيجية للدولة، وعوامل أخرى. أمّا التيارات النقدية في العلاقات الدولية فتثير العديد من الأسئلة عن مفهوم المصلحة الوطنية ولا تعدّه شيئاً

11 Martin Griffiths, International Relations for 21 century, London, Routledge, 2012, P 67

12 Robert Dahl, Politics: Who Gets What, When and How, Yale, New Haven, 1966, p. 45

معطى أو محدداً مسبقاً، بل تشير إلى مجموعة من النقاط والتساؤلات مثل مصلحة من؟ لأن أتباع النظريات النقدية لا يعتقدون بأن الدولة وحدة متكاملة وتتصرف بصوت واحد (Unitary Actor)، بل هناك العديد من الطبقات والجماعات ومراكز القوى الكثيرة التي تسهم في تعريف المصلحة الوطنية. أما بالنسبة إلى البنائية فالمصلحة الوطنية ليست شيئاً محدداً بشكل موضوعي، بل هي مشروع دائم التكوين ويختلف مع اختلاف الزمن والعلاقات الاجتماعية للفاعل. والبنانيون مهتمون اهتماماً كبيراً بالعلاقة بين المصلحة (Interest) والهوية (Identity)، وكيف تحدد الأفكار المصلحة، أو بالعكس، وبشكل مبسط فإن أتباع البنائية يعتقدون أن الهوية والأفكار والمصلحة مفاهيم لا يمكن الحديث عن إحداها دون الأخرى.

ثالثاً: أهمية الهوية في النظرية البنائية:

يعد مفهوم الهوية Identity من المفاهيم المهمة لأتباع النظرية البنائية ليس فقط لأنها تساعد على تحديد المصلحة للفاعل لكنها مهمة أيضاً لصناعة السياسة العامة للدولة. إذ يفترض البنانيون أن الهوية تمنح أو تحدد للفاعل دوراً في العلاقات الدولية؛ وبذلك سيتصرف الفاعل دوماً بما يراه ملائماً لهذا الدور، فعلى سبيل المثال أظهرت مجموعة من الدراسات أن الاعتقاد السائد بين الألمان بعد الحرب العالمية الثانية بأوروبية ألمانيا وبأهمية التكامل الأوروبي أدى إلى سياسات مختلفة عما سبق. كذلك اعتقاد البريطانيين وتحديد هويتهم بالعلاقات الأطلسية حدد دور بريطانيا في العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية. فضلاً عن ذلك يركز أتباع البنائية على العوامل والطرائق التي تحدد الهوية للفاعل وكيف تتغير هذه الهوية؟ فهم قريبون بذلك - إلى حد ما - من أتباع ما بعد الحداثة؛ وذلك بتوصيف ما يسمى بالآخر (Othering) وتوظيفها لهذا المنهج بتحليل الهوية وتوصيفها. وهذا الأسلوب يعتمد على أن لكل هوية نقيضاً أو معياراً مخالفاً له أو مغايراً. فعدم وجود الآخر يلغي وجود الأنا والهوية. ولكن يتميز البنانيون عن أتباع ما بعد الحداثة بأنهم لا ينطلقون من أسس لغوية أو فلسفية، بل من علم النفس الاجتماعي. فالدراسات العديدة لمجموعات أو جماعات إنسانية أظهرت أن هذه الجماعات تفرق بين من ينتمي إلى المجموعة ومن هو خارج هذه المجموعة (Insiders and Outsiders) ويكتسبون هويتهم من هذا التفريق، وهناك أمثلة عديدة تعطى على ذلك مثل الهوية الأوروبية ضد الهوية التركية، أو الهوية البريطانية ضد الهوية الأوروبية أو الهوية الأمريكية في مواجهة جماعات وأمم أخرى. والهوية بالنسبة إلى البنانيين لا تتغير بشكل سهل إلا إذا كان هناك تغيير كبير جعل الوحدات الفاعلة تنخرط بعلاقات اجتماعية جديدة تسهم في تحديد هوية جديدة مثل

الحرب العالمية الثانية بالنسبة إلى أوروبا، وأحداث 11\9\2001 بالنسبة إلى الولايات المتحدة الأمريكية. والمهم هنا أن نميز ثلاث نقاط أساسية :

1- العلاقة بين الهوية والمصلحة والقاعدة.

2- الهوية تحدد سلوك الفاعل، وهي بدورها تتحدد من خلال التفاعل بين الفاعل والبناء.

3- ليس من السهل تغيير الهوية إلا في حالات كبيرة جداً تستدعي بروز هوية جديدة على حساب هويات أخرى.

رابعاً: الأمن والسلام لدى أتباع البنائية:

اهتم أتباع النظرية البنائية بدراسة الأمن والسلام، وقد تركزت دراسات البنائيين على ثلاثة محاور:

1- أشار بعض البنائيين إلى ما يسمى بثقافة الأمن لدى بعض البلدان التي تحدد الرؤية والسياسات الأمنية لتي تضعها هذه الدول فيما يتعلق بأمنها القومي. تأسيساً على كتابات البنائيين الأوائل عن الثقافة والقيم والهوية، يحاول أتباع النظرية البنائية دراسة الأثر التراكمي لتشكيل نوع من الثقافة ملامحها الأساسية "الأمن"، أي إن ارتكازاتها الأساسية المنطقية هي تحقيق الأمن والسلام كأولوية للحكومة المركزية، وخاصة إذا كانت هذه الدول تعاني من العديد من الأزمات والتحديات وعدم الاستقرار؛ وهذا يقود إلى تداول مفاهيم وقيم تتعلق بالأمن وتصبح هذه المفاهيم والقيم جزءاً كبيراً من الإطار الاجتماعي "البناء" الذي يتفاعل معه الأفراد، وفي ظل ذلك التفاعل تصبح ثقافة الأمن هي العامل الأساسي في رسم السياسات للدول.

2- طور مجموعة من أساتذة العلاقات الدولية تحت عنوان "التجمعات الأمنية" أو الجماعات الأمنية Security Communities مجموعة من الدراسات التي استمدت من دراسات كارل دويتش كثيراً من الأفكار والمبادئ.¹³ توجد التجمعات الأمنية عندما تشعر مجموعة من الدول بأنها مجموعة واحدة ولديها الإحساس بالانتماء إلى هذا التجمع، وتبدأ هذه الدول بتأسيس مؤسسات و هيئات للحفاظ على السلام والأمن داخل هذا التجمع.¹⁴ وقد ميز الباحثون بين عدة أنواع من التجمعات الأمنية أهمها التجمعات الكبيرة التي يعكسها نظام الأمن الجماعي على الصعيد الدولي، والنوع الآخر هو الأصغر أو التجمع الاقليمي الذي ينشأ عندما تجتمع مجموعة من الدول لتتنشئ نظاماً مشتركاً

13 Immanuel Adler, Security Communities, Cambridge University Press, New York, 1998, P.44

14 Ibid. p.197

للأمن، مع احتفاظ كل منها بسيادته واستقلاله. وقد تركزت أغلب الدراسات في هذا المجال في عدة أسئلة مثل: كيف تؤثر القيم والمؤسسات للمجتمعات الأمنية في السياسات الأمنية للدول؟ وكيف تتغير التجمعات الأمنية؟

3- المحور الثالث في إسهام البنائية في الدراسات الدولية المتعلقة بالأمن والسلام وتتمثل في انخراط مجموعة من البنائيين في الجدل المتعلق بمفهوم الأمن القومي National Security.

فمن المعروف أن مفهوم الأمن القومي كان دوماً يركز على الجانب العسكري ولاسيماً خلال الحرب الباردة الذي ارتبط ارتباطاً كبيراً بأدبيات النظرية الواقعية في العلاقات الدولية. إذ يشكل الأمن القومي المفهوم الأساسي للواقعية في دراسة العلاقات الدولية. إلا أن الاتجاهات الجديدة منذ الثمانينيات من القرن العشرين وبشكل خاص بعد الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفيتي برزت مجموعة من الاتجاهات التي تدعو إلى توسيع هذا المفهوم أي مفهوم الأمن القومي ليشمل جوانب عديدة فضلاً عن الجانب العسكري، وبرز في هذا الاتجاه كتابات بييري بوزان Barry Buzan وريتشارد ألمان Richard Ulman فضلاً عن تيار يسمى الدراسات النقدية في الأمن التي تضم مجموعة من الكتاب من أتباع النظرية النقدية أو ما يسمى بمدرسة فرانكفورت، وقد نُشرَ العديد من الكتب في هذا الاتجاه الذي يدعو ليس فقط توسيع المفهوم، بل إلى تحويل الاهتمام لهذا المجال من الدراسات، وجعل الاهتمام يتركز على موضوعات أخرى مثل الديمقراطية، والبيئة، وحقوق الإنسان، والاقتصاد، والهجرة غير الشرعية والأمراض السارية مثل الأيدز وغيره... ومن أبرز الكتاب في هذا المجال كن بوث Ken Booth وديفيد كامبل David Campbell

وفي خضم هذا الجدل برز مفهوم الأمن الإنساني الذي يعبر عن أن جوهر الدراسات الأمنية يجب أن يكون الإنسان وليس المادة؛ وهذا ما يعرف بالأمن الإنساني Human Security .

إن المنطق الفكري الذي يبني عليه أتباع هذا التيار الجديد رأيهم هو الآتي: ما الذي نحاول أن نحافظ على أمنه. بمعنى آخر ما موضوع الأمن؟ بالنسبة إلى أتباع هذا التيار موضوع الأمن هو الإنسان، وإذا كان الهدف هو أمن الإنسان فإن مصادر الخطر في هذا المجال متعددة (الاحتباس الحراري، والتمييز العنصري، وانتهاك حقوق الإنسان....) هذه الموضوعات كلها يجب أن تُؤلف جزءاً من اهتمام الدراسات الأمنية. وفي هذا الاتجاه يكتب أوليه ويفر Ole Weaver وبييري بوزان Barry Buzan أن الأمن يجب أن يشمل قطاعات أخرى مثل الأمن الاقتصادي والاجتماعي للإنسان.¹⁵ أمّا بالنسبة إلى

15 Barry Buzan, The Evolution of International Security Studies, Cambridge University Press, New York, 2009, p. 16

أُتباع البنائية فمفهوم الأمن كمفهوم الأتاركي أي إنَّ معناه وقيمته تعتمد على ما تجعل منه الدول، وكما قال الكساندر وينت Alexander Wendt "أتاركي هي كما يراها ويجعل منها الفاعلون أو الدول" فبالنسبة إلى الأمن (الأمن كما تراه وتجعل منه الدول) "Anarchy What States Make of It". إذاً هو مفهوم يعتمد على عملية البناء الناتجة عن تفاعل الدول مع البناء الاجتماعي في النظام الدولي. فبعض الأحيان الدول تعتقد في مرحلة معينة أن الأمن القومي بمعناه التقليدي هو الأفضل في حين في وقت آخر أو مرحلة وظروف مختلفة (التطور الاقتصادي، والحفاظ على البيئة، وبناء مؤسسات المجتمع المدني، ونشر الديمقراطية تأتي على أولويات الأمن القومي. بمعنى آخر إنَّ الأمن القومي ليس شيئاً معطى بل هو حصيلة العملية التفاعلية بين الوحدات والبناء ويعكس القيم والقواعد التي تضبط التفاعلات. مما سبق نجد أن النظرية البنائية ترفض افتراض الواقعية عن العلاقات الدولية أو مايسمى بالبلياردو كتصور للعلاقات بين الدول في النظام الدولي. لأنه أغفل العوامل الاجتماعية والثقافية وعلى رأسها مسألة الهوية في سلوك الفاعلين.

هذا يعني أن أتباع البنائية أرادوا وضع منهج أو تصور اجتماعي للعلاقات الدولية مقابل البناء المادي الحتمي الذي تقوم عليه النظريات الوضعية. هذا التصور يعكس العلاقة الجدلية بين الوحدات و البناء. ومحور هذا التصور هو الأفكار (Ideas) التي تربط الطرفين. بذلك نجد أن البنائيين يهتمون بمسألة التغيير ولاسيما دور الأفكار في تشكيل الوعي الإنساني لما يدور حوله.

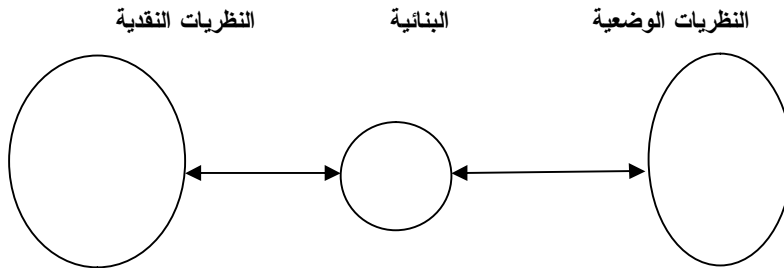
وفي هذا الإطار تجدر الإشارة إلى أن البنائية كنظرية أو مدخل لدراسة العلاقات الدولية وفهمها قد ازدهرت ازدهاراً كبيراً في السنوات العشرين الماضية أي مرحلة ما بعد الحرب الباردة، إذ وجد فيها العديد من الأكاديميين النظرية الأكثر قدرة على تفسير العديد من الظواهر وفهمها في هذه المرحلة مثل الحروب الأهلية، وانفصال بعض الدول عن دول أخرى وحركات تطالب بالاستقلال وتحمل لواء هويات جديدة. كذلك هناك عودة للثقافة في العلاقات الدولية The Return of Culture to International Relations. تعكس طبيعة المرحلة والقضايا التي شهدتها هذه المرحلة. فمن أطروحة صراع الحضارات لصومائيل هنتنغتون إلى العديد من الاتجاهات الفكرية الجديدة التي تعكس دور العوامل الاجتماعية في العلاقات الدولية، ذلك كله يعبر عن هيمنة الاتجاهات الجديدة في دراسة العلاقات الدولية.

المطلب الثالث: البنائية كجسر بين الوضعية وما بعد الوضعية:

كما شاهدنا في هذا البحث أن تطور دراسة العلاقات الدولية قد تم من خلال الجدالات بين التيارات المتعددة، إذ شهد الجدال الأخير أو ما يسمى الجدال الراهن في العلاقات الدولية سجلاً بين النظريات الوضعية من جهة وما بعد الوضعية من جهة أخرى. هذا الجدال بدأ يتبلور تبلوراً كبيراً خلال الثمانينيات من القرن الماضي. فقد انطلق أتباع النظريات الوضعية من الفرضية الآتية: إمكانية دراسة العلاقات الدولية بالطرائق العلمية المستخدمة بالعلوم الطبيعية. وقد رأينا أيضاً أن النظريات الوضعية تركز على الملاحظة والتجريب في الحصول على المعرفة وعلى الموضوعية في البحث العلمي والابتعاد عن القيم. تسمى في بعض الأحيان هذه التيارات بالتيارات العقلانية. أما ما بعد الوضعية فتنتقد الافتراضات الاستمولوجية للوضعية وتعطي أهمية كبرى للقوى والعوامل الاجتماعية التي أهملتها التيارات الوضعية. هذه التيارات اهتمت أيضاً بالثقافة والتاريخ والأفكار كعوامل تؤدي دوراً كبيراً في العلاقات الدولية. أما البنائية فهي تأخذ من الوضعية اهتمامها بالدولة كفاعل أساسي في العلاقات الدولية وأن المصلحة الوطنية والأمن القومي محددان لسلوك الفاعل. ولكن أيضاً تأخذ من تيارات ما بعد الوضعية التركيز على الهوية والأفكار والقيم. فالمصلحة الوطنية لدى البنائية ليست كما يعتقد الوضعيون بأنها دوماً معرفة بالأمن القومي أو معطى ثابت، بل هي ناتجة عن عملية التفاعل بين الفاعل والبناء، وهنا يأتي دور الأفكار والهوية وهذا ما يركز عليه أتباع التيارات النقدية (ما بعد الوضعية). وهذا ما يجعل البنائية جسراً بين التيارين.

الشكل الآتي يلخص الفكرة عن البنائية كجسر بين الوضعية وما بعد الوضعية.

شكل (1) البنائية كجسر بين النظريات الوضعية و نظريات ما بعد الوضعية



وفي نهاية هذا البحث يمكن لنا أن نجمل وبشكل مختصر النقاط الأساسية للنظرية البنائية:

- 1- البنائية لا تشكل نظرية واحدة بالمعنى الوضعي ولكن يشير أتباعها إلى عدّها مجموعة من المداخل المختلفة التي تشترك في عدة نقاط أهمها أنها تشكل بأي افتراض ينطلق من أن هناك حقائق وأشياء موجودة ومحددة بعيدة عن إرادتنا، فهي ترى أن عالمنا هو عملية أو مشروع مستمر في البناء من خلال التفاعل بين الفاعل (Agent) والبناء (Structure).
- 2- تعدّ البنائية بنظر العديد الجسر بين التيارات الوضعية، أو ما تسمى بعض الأحيان بالاتجاهات العقلانية من جهة والاتجاهات النقدية أو ما بعد الوضعية من جهة أخرى.
- 3- تستمد البنائية منهجها من النظريات الاجتماعية؛ ولذلك نجدها تركز على الجانب الاجتماعي للعلاقات الدولية. بعكس المدخل الميكانيكي المادي للنظام الدولي الذي تتبعه الواقعية الجديدة التي تعطي الأولوية للعوامل الاجتماعية.
- 4- تركز البنائية على دور القيم والقواعد والثقافة والهوية، وهذا ما يميّزها عن النظريات التي تتخذ من المصلحة أساساً لتحليل العلاقات الدولية مثل الواقعية الجديدة والليبرالية الجديدة.
- 5- القيم والقواعد والمؤسسات تؤدي دوراً مهماً في التفاعلات بين الوحدات، وهي التي تسهم في خلق البيئة المجتمعية التي يتعامل فيها الأفراد ويشعرون بأنهم ينتمون إلى مجتمع. وللبنائيين الدول مثلها مثل الأفراد تتفاعل مع بعضها بعضاً ومع البناء أيضاً ومن هذا التفاعل ينشأ مجتمع تشكل القواعد والقيم بنيته الاجتماعية.
- 6- يعدّ البنائيون أن مفهوم المصلحة الوطنية يحتاج إلى شرح ودراسة بدلاً من عدّه شيئاً معطى كما هو موجود دون أي تساؤل عن طبيعة هذا المفهوم وكيف تشكل ومن هو الذي يحدده. ولذلك يسعى البنائيون إلى دراسة الآلية وإظهارها التي من خلالها تتفاعل المصلحة الوطنية والقيم والقواعد وتحدد الهوية، وبذلك يتحدد سلوك الدولة أو الفاعل على الصعيد الخارجي.
- 7- أحد أهم رواد البنائية هو ألكساندر ويندت إذ يعدّ إسهامه في دراسة الفكرة بالمادة وأثره في تفسير تغيير طبيعة النظام الدولي من أهم ما قدمته البنائية في هذا المجال.
- 8- من الناحية المنهجية يعتمد أتباع البنائية على النظريات الاجتماعية وتوظيف العمليات التاريخية كي تشرح التفاعل بين الفاعل والبناء.
- ومن الجدير بالذكر التمييز بين مداخل متعدّدة داخل البنائية. فكما نوّه إليه سابقاً فإن ألكساندر ويندت Alexander Wendt ركز تركيزاً كبيراً في دراسته على الأسس الاستمولوجية إذ أبرز العلاقة بين

الفاعل والبناء، في حين جاءت دراسات نكولاس أونوف Nicholas Onuf لتبرز الجانب الانطولوجي الاجتماعي في العلاقات الدولية إذ يعطي أونوف أهمية إلى دور اللغة وأثر الخطاب في هيكلية بناء العلاقات الدولية وتنظيمها. وهذا ما يجعل بعض المفكرين يعتقدون بأن أونوف يتقاطع مع أفكار ما بعد الحدائثة والنظرية النقدية.¹⁶

خاتمة:

وباختصار إن البنائية كنظرية في العلاقات الدولية تحاول أن تجد العلاقة أو الرابط بين المكونات الثلاثة في العلاقات الدولية الفاعل، والبناء، وعملية التفاعل بينهما، وبذلك نرى أن البنائية تعدّ العلاقات الدولية هي علاقات اجتماعية إنسانية بالدرجة الأولى. فتعدّ البنائية كما ذكرنا سابقاً جسراً أو وسطاً بين التيارات الوضعية والتيارات ما بعد الوضعية.

إن طبيعة مرحلة ما بعد الحرب الباردة شكلت البيئة المناسبة لاختبار النظرية البنائية التي يرى العديد من المفكرين مثل بييري بوزان Barry Buzan وريتشارد لتل Richard Little أنها تقدم مدخلاً مناسباً لفهم العلاقات الدولية ودراساتها في مرحلة ازدياد فيها دور الهوية والعوامل الاجتماعية في ظل نظام العولمة والحروب الأهلية؛ ولذلك تجد هذه النظرية قبولاً كبيراً بين الأكاديميين والسياسيين على حد سواء.

جدول رقم (1) : ملخص لنظرية البنائية لمجموعة من المفاهيم

المفهوم	كيف تنظر إليه البنائية
الفرد	فاعل أساسي بحسب موقعه بالمجتمع أو النخب
الدولة	بناء اجتماعي وفاعل أساسي
النظام الدولي	يتكون من بناء مادي وبناء اجتماعي و هو الأهم
المصلحة الوطنية	تتحدد من خلال التفاعل بين الفاعل و البناء (الدولة وبنية النظام الدولي)
الأمن القومي	أيضاً يتحدد ويبنى من خلال عمليات التفاعل المستمرة بين الفاعل والبناء
الهوية	وهي من أهم المفاهيم بالنسبة إلى البنائية وتتحدد من التفاعل بين الفاعل والبناء وتسهم في تحديد سلوك الفاعل

المصدر: Karen Mingst, Essentials of International Relations, Norton, London, 2011, p 46:

المراجع

- Alexander Wendt, "Anarchy What States Make of it", *International Organizations*, Vol. 46 No. 2 P391-425
- Alexander Wendt, *Social Theory of International Politics*, Cambridge University Press, New York, 1999
- Andrew Linklater and others, *International Relations Theory*, Palgrave, London, 2007
- Anthony Giddens, *Sociology, Polity*, London, 2011
- Barry Buzan, Ole Weaver, *The English School of International Relations*, Cambridge University Press, New York, 2006
- Barry Buzan, *The Evolution of International Security Studies*, Cambridge University Press, New York, 2009
- Colin Wight, *Agent, Structure and International Relations: Politics as Ontology*, Cambridge University Press, New York, 2006
- Immanuel Adler, *Security Communities*, Cambridge University Press, New York, 1999
- Karen Mingst, *Essentials of International Relations*, Norton, London, 2001
- Martin Griffiths, *International Relations Theory for 21 century*, Routledge, London, 2012
- Nicholas Onuf, Vendulka Kubalkouva, *International Relations in a Constructed World*, Sharp, London, 1998
- Paul Viotti, Mark Kuppi, *International Relations Theory*, Pearson, London 2011 Robert Dahl, *Politics: Who gets What and How*, New Haven, Yale University Press, 1966